الفصل الخامس والعشرون

فى ذكر تعريف النفس وتصريف مواجيد العارفين

إعلم أن النقصان يبدو من الغفلة ، والغفلة تنشأ من آفات النفس، والنفس مجبولة على الحركة وقد أمرت بالسكون، وهو ابتلاؤها لتفتقر إلى مولاها وتبرأ من حولها وقواها. ومثل ذلك قوله تعالى ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون، لتفزعوا إليه فتقولوا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين. وكما قال وكان الإنسان عجولا، خلق الإنسان من عجل، ثم قال سأريكم آياتى فلا تستعجلون، وقال أتى أمرُ اللّه فلا تستعجلوه، فأخبر عن وصفه بالعجلة ثم أمره بتركها للبلوى، فإن نزلت السكينة وهى مزيد الإيمان سكنت النفس عن الهوى بإذن مُنَفّسها، وإن حُجب القلب بالغفلة وهى علامة على الافتقار والتضرع تحركت النفس بطبعها، فإن سكنت عن حركتها فبالمنّة والفضل، وإن تحركت بوصفها فبالابتلاء والعدل، فأوّل البلاء اختلافها، وأول اختلافها خلافها، ومقدمته الهمّة، وبابه السمع، وهو طريق إلى الكلام والنظر. والقول طريق إلى الشهوة، والشهوة مفتاح الخطيئة، والخطيئة مقام من النار حتى يُزَحزِح عنها الجبار بالتوبة فى الدنيا والعفو فى العقبى. وقد تكون المخالفة على المحب العارف أشد من النار كما حُدّث عن بعضهم: قال: لأنْ أُبتلَى بدخول النار أحب إلى من أنْ أُبتلى بمعصية. قيل ولِمَ، قال: لأن فى المعصية خلاف ربى تعالى وسخطه، وفى النار إظهار قدرته وانتقامه لنفسه. قال: فسخطه أعز على وأعظم من تعذيب نفسى. وكذلك حدّثونا فى معناه عن البعض الموقنين من العمّال أنه قال: ركعتان تُتقبل منى أحبُ إلىّ من دخول الجنة، قيل وكيف، قال: لأن فى الركعتين رضا ربى عز وجل ومحبته، وفى الجنة رضاى وشهوتى، فرضا ربى عز وجل أحبُ إلىّ من محبتى. وقد قال وهيب بن الورد المكّى فى لبن سُئل أن يشربه فلم يفعل، لأنه سأل عن أصله فلم يستطبه، فقالت له أمه إشرب فإنى أرجو إن شربته أن يغفر اللّه لك، فقال ما أحبُ أنى شربته وأن اللّه غفر لى، قالت ولم، قال لا أحب أن أنال مغفرته بمعصيته.

فجملة وصف النفس معنيان الطيش والشره، فالطيش عن الجهل والشره عن الحرص، وهما فطرة النفس، فمثلها فى الطيش كمثل كرة أو جَوْزة فى مكان أملس مصوّب سكونها بالمنّة، فإنْ أشرت إليها أو

حركتها أدنى حركة تحركت بوصفها وهو خفتها واستدارتها. وصورتها فى الشره المتولدة من الحرص أنها على صورة الفراشة، إنها تقع فى النار جاهلة شرهة، تطلب بجهلها الضوء وفيه هلاكها. فإذا وصلت إلى شىء منه لم تقتنع بيسيره لشرهها فتحرص على الغاية منه، وتطلب عين الضوء وجملته، وهو نفس المصباح، فتُحرق، ولوقنعت بقليل الضوء عن بُعد سلِمتْ، فكذلك النفس فى طيشها الذى يتولد من العجلة، وفى شرهها الذى ينتج من الحرص والطمع. والحرص والطمع هما اللذان كانا سبب إخراج آدم عليه السلام من الجنه، لأنه طمع فى الخلود فحرص على الأكل، وكان ذلك عن الجهل والشره، فكانت معصيته سبب عمارة الدنيا، فصارت الطاعة سبب عمارة الآخرة، فلذلك قيل حب الدنيا رأس كل خطيئة، فصار الزهد أصل كل طاعة، فانظر كيف أُخرج من الجنة بعد أن جُعل فيها، بذنب واحد، وأنت تريد أن تدخلها ولم تملك النظر إليها بذنوب كثيرة!

وفى الحديث الآخر الإيمان عريان، فلباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم، ومن ثم قيل إن الجنة طيبة لا يسكنها إلاّ الطيب، فمتى طابوا لها دخلوها. ألَم تسمع إلى وفاقه بين ذلك فى قوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة طيبّين يقولون سلام عليكم. وقال تعالى وقال لهم خزنتها سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين، لأنه قال ومساكن طيبة فى جنات عدن. والذنوب خبائث كما قال، ويحرم عليهم الخبائث، فلما طابوا لها طابت لهم، وقد أجُمل ذلك بقوله تعالى الخبيثات للخبيثين، وبقوله الطيبات للطيبين.

وقد مثّل بعضهم النفس فى شَرهها بمثل ذبابٍ مرّ على رغيف عليه عسل، فوقع فيه يطلب الكلية فعلق بجناحه فقتله، وآخر مرّ به فدنا من بعضه فنال حاجته فرجع إلى ورائه سالما. وقد مثّل بعض الحكماء ابن آدم مثل دود القز، لا يزال ينسج على نفسه لجهله حتى لا يكون له مخلص فيقتل نفسه، ويصير القز لغيره، وربما قتلوه إذا فرغ من نسجه، لأنّ القز يلتف عليه فيروم الخروج منه فيشمس، وربما غمزوه بالأيدى حتى يموت لئلا يقطع القز، وليخرج القز صحيحا. فهذه صورة المكتسب الجاهل الذى أهلكه أهلُه ومالُه، فتنعم ورثته بما شقى به، فإن أطاعوا به كان أجره لهم وحسابه عليه، وإنْ عصَوْا به كان شريكهم فى المعصية لأنه أكْسَبَهم إياّها به، فلا يدرى أى الحسرتين عليه أعظم، أذهابه عمره لغيره، أو نظره إلى ماله فى ميزان غيره.

ومما سمعت فى علم شره النفس ما حدثّنى بعض إخوانى عن بعض هذه الطائفة، قال

قَدمَ علينا بعض الفقراء فاشترينا من جارٍ لنا جملا مشويا ودعوناه عليه فى جماعة أصحابنا، فلما مَدّ يده ليأكل وأخذ لقمة وجعلها فى فيه لفظها ثم اعتزل وقال: كلوا أنتم فإنه قد عَرَضَ لى عارض منعنى من الأكل، فقلنا لا نأكل إنْ لم تأكل معنا، فقال أنتم أعلم أما أنا فغير أكل ثم انصرف. قال فكرهنا أن نأكل دونه، فقلنا لو دعوْنا الشوّاء فسألناه عن أصل هذا الجمل فلعل له سبباً مكروها، فدعوْناه فلم نسأل عنه حتى أقرّ أنه كان ميتة، وأنّ نفسه شَرِهت إلى بيعه حرصاً على ثمنه فشواه، فوافق أنكم اشتريتموه. فقال فمزقناه للكلاب. قال ثم إنى لقيت الرجل بعد وقت فسألته لأى معنى تركتَ أكله وبأى عارض، فقال أخبرك ما شرهت نفسى إلى طعام منذ عشرين سنة بالرياضة التى رضتُنها بها، فلما قدّمتم هذا شرهت نفسى إليه شرهاً ما عهدته قبل ذلك، فعلمت أن فى ذلك الطعام علّة فتركت أكله لأجل شره النفس إليه. فانظر رحمك اللّه كيف اتّفقا فى شره النفس عن قصد واحد ثم اختلفا فى التوفيق والخذلان، فعَصَم العالِمَ الورع والمحاسبة وتُرِكَ الجاهل مع شره النفس بالحرص وَتْركِه المراقبة، أعنى البائع للجمل، ثم عُصِمَ الآخرون للتوفيق بحسن الأدب، وهو قمع شره النفس عن الأكل بعد صاحبهم، ثم تدارُك البائع بعد وقوعه لِصِدْق المشترى وحُسن نيته.

وجِبِلّات النفس الأربعة هى أصول ما تفرع من هواها، وهى مقتضى ما فطرها عليه مولاها، أولاها الضعف وهو مقتضى فطرة التراب، ثم، البخل وهو مقتضى جبِلّة الطين، ثم الشهوة وموجبها الحمائم الجهل، وهو ما اقتضاه موجب الصلصال، وهذه الصفات على معانى تلك الجبِلّات للابتلاء بالأمشاج، ففيه بدء الأمْت والاعوجاج ذلك تقدير العزيز العليم.

ثم إن النفس مبتلاة بأوصاف أربعة متفاوتة، أولها معانى صفات الربوبية نحو الكبر والجبرية وحب المدح والعز والغنى، ومبتلاة بأخلاق الشياطين مثل الخَدْع والحيلة والحسد والطُنْة، ومبتلاة بطبائع البهائم وهو حب الأكل والشرب والنِكاح، وهى مع ذلك كله مطالبة بأوصاف العبودية مثل الخوف والتواضع والذل بمعنى ما قلناه. قيل إنها خلقت متحركة وأمرت بالسكون، وأنّى لها بذلك إنْ لم يتداركها المالك، وكيف تسكن بالأمر إن لم يسكنها محركها بالخير، فلا يكون العبد عبدا مخلَصا حتى يكون للمعانى الثلاث مخلِصا، فإذا تحقق بأوصاف العبودية كان خالصا من المعانى التى هى بلاؤه من صفات الربوبية، فإخلاص العبودية للوحدانية عند العلماء الموحدين أشدمن الإخلاص فى المعاملة عند العاملين، وبذلك رُفِعوا إلى مقامات القرب،

وذلك أنه لا يكون عندهم عبداً حتى يكون مما سوى الله عز وجل حرا، فكيف يكون عبدُ ربٍ وهو عبدُ عبد، لأن ما قاده إليه فهو إلهه، وما ترتب عليه فهو ربه، وهذا شرك فى الإلهية عند المتألهين، ومَرْج بالربوبية عند الربانيين، فهو متعوس منكوس بدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ يقول تَعِسَ عبد الدنيا، وتعس عبد الدرهم، تعس عبد الزوجة، تعس عبد الحلّة. فهؤلاء عبيد العدد الذين قال مولاهم إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا، لقد أحصاهم وعدّهم عدا، أصحاب النفوس الأمّارة بالسوء المُسَوِّلة الموافقة للهوى، المخالفة للمولى. وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنا إلى آخر وصفهم، أولو النفس المرحومة المطمئنة المرضية، هم عباد الرحمن أهل العلم والحكمة، علّمهم من لَدُنْه، واختارهم لنفسه. ولا يكون المريد بَدَلاً حتى يُبَدَّل بمعانى صفات العبودية، وبأخلاق الشياطين أوصاف المؤمنين، وبطبائع البهائم أوصاف الروحانيين، من الأنكار والعلوم، فعندها كان بدلاً مقربا. والطريق إلى هذا بأن يملك نفسه فيملكها، وتُسَخّر له فيُسلّط عليها، فان أردت أن تملك نفسك فلا تملكها وضيّق عليها ولا توسّع لها، فإنْ ملكتها ملكتك، وإنْ لم تضيق عليها اتّسعت عليك، فإنْ أردت الظفر بها فلا تُعَرّضها لهواها واحتبسها عن معتاد بلاها، فإنْ لم تمسكها انطلقت بك، وإنْ أردت أنْ تقوى عليها فاضْعِفْها بقطع أسباب هواها وحبس مواد شهواته، وإلاّ قَوِيت عليك فصرعتك، فأول الملكة لها أن تحاسبها فى كل ساعة، وتراقب حِسْبتها فى كل وقت، وتقف عند كل همّة من خواطرها، فإنْ كانت الهمة لله عز وجل سابقت الموت وبادرتَ الفوت فى إمضائها، وإنْ كانت الهمة لغير الله تعالى سابقتَ وبادرتَ فى محوها لئلا تثبت، وعملت فى الاستبدال بها كيلا تستبدل بك.

وفى تأويل الخبر المروي البِرُّ يزيد فى العمر، وهو معنى الدعاء المشهور من قول الناس جعل الله فى عمرك البركة، وقد بورك له فى عمره، فإن البركة فى العمران تُدرك فى عمرك القصير بيقظتك ما فات غيرُك من عمره الطويل بغفلته، فيرتفع لك فى سَنَة مالا يرتفع له فى عشرين سَنَة.

وللخصوص من المقربين فى مقامات القُرب عند التجلى بصفات الرب إلحاقٌ برفيع الدرجات وتدارك ما فات عند أذكارهم وأعمال قلوبهم اليسيرة فى هذه الأوقات، فكل ذرة من ذِكر بتسبيح أو تهليل أو حمد أو تدبر وتبصرة، وتفكر وتذكرة، بمشاهدة قرب وجدٍ برب، ونظرة

إلى حبيب، ودنو إلى قريب ، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين الذين هم بنفوسهم واجدون، وللخلق مشاهدون . مثل العارفين فيما ذكرته من قيامهم بمشاهدتهم ورعايتهم لأمانتهم وعهدهم في وقت قربهم وحضورهم مثل العامل في ليلة والقدر، العمل فيها لمن وافقها خير من ألف شهر. وقد قال بعض العلماء كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر.

وروينا عن عليّ رضى الله عنه أنه قال كل يوم لا يُعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد. وكان الحسن إذا تلا قوله تعالى كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية قال يا إخواني هي والله أيامكم هذه فاقطعوها بالجِد والاجتهاد، ولا تُضيّعوها فتخلّوها فراغا من حسن المعاملة. وبطالتك فيها عن الشغل بمعادك المحصول عليك منها، كما قال المبطلون يا حسرتنا على ما فرّطنا فيها، يعني في الأيام الخالية التي هي محصولهم ومرجعهم ومثواهم، وكما قالت النفس الأمّارة بالسوء يا حسرتا على ما فرّطت في جنب الله، يعني أيام الدنيا التي ضيّعت العمر فيها فَخَلَت من الثواب والجزاء غدا. وهذا أحد الوجهين في قوله الأيام الخالية، والوجه الآخر الخالية أي الماضية، خلت أوقاتها وخلدت أحكامها وذهبت شهواتها وبقيت عقوباتها، فإن قصّرت عن هذه المحاسبة للحبيب فلا يفوتنك مقام الورعين ولا تُبن عن حال التائبين، وهو أن تجعل لك وِردين في اليوم والليلة لمحاسبة النفس وموافقتها، مرة بعد صلاة الضحى لِمَا مضى من ليلتك وما سلف من غفلتك، فإنْ رأيت نعمة شكرتَ الله، وإن رأيت بليةً استغفرت، فإن وجدتَ في حالك أوصاف المؤمنين التي وصفهم الله عز وجل ومدحهم عليها رجوتَ وطمعتَ واستبشرتَ، وإنْ وجدت من قلبك وحالك وصفاً من أوصاف المنافقين أو خلقاً من أخلاق الجاهلين التي ذمّهم الله عز وجل بها ومقتهم عليها، حزنتَ وأشفقت وتُبتَ من ذلك واستغفرت. والمرة الثانية أن تحاسب نفسك بعد الوتر وقبل النوم لِمَا مضى من يومك من طول غفلتك وسوء معاملتك وما فعلته من أعمالك، كيف فعلتها ولِمَ فعلتها، وما تركته من سكوتك وصمتك، لِمَ تركتَه ولِمَ تركته، فتنعقد الزيادة والنقصان، وتعرف بذلك التكلف والإخلاص من حركتك وسكونك، فما تحركت فيه وسكَنْتَ لأجل الله عز وجل به فهو الإخلاص، ثوابك فيه على الله عز وجل عند مرجعك إليه، فاعمل في الشكر على نعمة التوفيق وحُسن العصمة من التهلكة، وما سكنت فيه أو تحركت لهواك وعاجل دنياك فهو التكلف الذي أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه هو والاتقياء من أمته برآء من التكلف، وقد

استوجبت فيه العقاب عند نشر الحساب، إلاّ أنْ يغفر المولى الكريم الوهّاب، فاعمل حينئذ فى الاستغفار بعد حُسن التوبة وجميل الاعتذار، وخِفْ أنْ يكون قد وكلك إلى نفسك فتهلك، فلعل مشاهدة هذين المعنيين من خوف ما سلف منك والطمع فى قبول ما أسلفت يمنعك من المنام ويطرد عنك الغفلة، فتحيى ليلتك بالقيام فتكون ممن وصف الله عز وجل فى قوله تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعُون ربهم خوفا وطمعا وقد قال بعض السلف كان أحدهم يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك لشريكه. وقد قال بعض العلماء من علامة المقت أن يكون العبد ذاكراً لعيوب غيره، ناسياً لعيوب نفسه، ماقتاً للناس على الظن، محباً لنفسه على اليقين.

وترك محاسبة النفس ومراقبة الرقيب من طول الغفلة عن الله عز وجل. والغافلون فى الدنيا هم الخاسرون فى العُقبى، لأن العاقبة للمتقين. قال الله عز وجل، وأولئك هم الغافلون، لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون. وطول الغفلة من العبد عن طبائع القلب من المعبود، والغفلة فى الظاهر غلاف القلب فى الباطن. وتقول العرب غَفَلَهُ وغَلَفَهُ بمعنى، كما تقول جذب وجبذ، وخشاف وخفاش.

وطبائعُ القلب عن ترادف الذنب بعضه فوق بعض، وهو الران الذى يتعقّب الكسب فيكون عقوبة له. قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، قيل المكاسب الخبيثة وأكل الحرام. وفى التفسير هو الذنب على الذنب حتى يسوّد القلب. وأصل الرين الميل والغلبة وهو التغطية أيضا، يقال ران عليه النعاس إذا غلبه، ورانت الخمر على عقله أى غطّته. ومن هذا قول عمر رضى الله عنه فى سابق الحاج فادّان معرضا فأصبح وقد رين به أى مال به الدين فغلبه.

وأصل ترادف الذنوب من إغفال المراقبة وإهمال المحاسبة وتأخير التوبة والتسويف بالاستقامة وترك الاستغفار والندم. وأصل ذلك كله هو حب الدنيا وإيثارها على أمر الله عز وجل وغلبة الهوى على القلب. أَلَمْ تَسمع إلى قوله عز وجل ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، إلى قوله عز وجل أولئك الذين طَبَعَ الله على قلوبهم. وقال فى دليل الخطاب ونَهَىَ النفس عن الهوى، يعنى عن إيثار الدنيا، لأن صريح الكلام وقع فى وصفهم بالطغيان وإيثار الحياة الدنيا، ثم قال طَبَعَ الله على قلوبهم واتّبعوا أهواءهم، فاتّباع الهوى عن طبائع القلب، وطبائع القلب عن عقوبة الذنب، وميراث العقاب الصمم عن فهم الخطاب. أمَاسمعته يقول لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون.

وقد جعل عليّ رضى الله عنه الغفلة مقاما من مقامات الكُفر فقال فى حديثه الطويل، فقام إليه سلْمان، فقال أخبرنا عن الكفر عَلَىَ ما بُنِي، فقال عَلَى أربع مقامات ، علي الشك والجفاء والغفلة والعمى، فإذا كثُرت غفلة القلب قلّ إلهام المَلَك للعبد وهو سمع القلب، لأن طول الغفلة يُصمه عن السمع، وعدم سمع الكلام من المَلَك عقوبة الخطايا، وتثبيت المَلَك للعبد على الخير والطاعة وحىٌ من الله عز وجل إليهم وتفضيل للعبد. أمَا سمعت قول الله عز وجل إذ يوحى ربك إلى الملائكة إنى معكم فثبّتوا الذين آمنوا.

وفى الخبر أن آدم عليه السلام حُجب عن سمع كلام الملائكة فاستوحش بذلك، فقال يارب مالى لا أسمع كلام الملائكة، فقال خطيئتك يا آدم. فإذا لم يسمع العبد كلام الملائكة لم يفهم كلام المَلِك، وإذا لم يسمع الكلام لم يستجب للمتكلم، إنما يستجيب الذين يسمعون. وقال الحسن إن بَيْن العبد وبين الله عز وجل حداً محدوداً من الذنوب، فإذا بلغه العبد طَبَع على قلبه فلم يوفقه للخير أبدا. فبادرْ أيها المجاوز للحدود بالتوبة والرجوع قبل أن تبلغ الحد فتلقى عَيّاً وجهدا. وفى حديث ابن عمر الطابَع معلقٌ بقائم عرش الرحمن فإذا انتُهكت المحارم بعث الله عز وجل بالطابع على القلوب فأعماها. وهذا فى القُفْل الذى قال الله عز وجل أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها .

واعلم أن القَسوة التى يهدد الله عز وجل عليها بالويل، المتولدة من طول الغفلة، فى قوله عز وجل فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله، وقد قرنها الله عز وجل بالنفاق، وأخبر أنه يجعل إلقاء الشيطان فتنة لأهل النفاق والقسوة، فإلقاء الشيطان يكثر عند قلة إلْهام المَلَك كما ذكرنا آنفا، ينتظم ذلك قوله عز وجل ليجعل ما يُلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، أى والقاسية قلوبهم أيضا. والقسوة ثمرة البعد، والبعد عقوبة الخيانة، والله لا يحب الخائنين، فذلك من تدبر الخطاب من قوله فيما نقضهم ميثاقهم، أى فبنقضهم الميثاق، وما صِلَة فى الكلام، فهذا هو الخيانة، لعنّاهم أى أبعدناهم، وجعلنا قلوبهم قاسية بترادف الذنوب بعد القسوة من الكذب والنسيان وكثرة الاطلاع على الخيانة منهم والبهتان، فأصيبوا بالذنوب، فوقع الطابع على القلوب، فصُمّت عن سمع كلام المحبوب، كما قال أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم، فجلاء هذا الطابع التقْوى فهو مفتاح السمع، كما قال اتقوا الله واسمعوا، والله تعالى الموفق.